ذكرى تولستوي

طرف من سيرته

هو الروائي الروسي الشهير والمصلح الاجتماعي الكبير . ولد في التاسع من سبتمبر سنة ١٨٢٨ وهو من اسرة المانية الاصل هاجرت الى روسيا في عهد بطرس الاكبر واول من اشتهر منها بطرس تولستوي الذي كان سفيراً لروسيا لدى الباب العالي ورقي الى مصاف الاشراف سنة ١٧٢٤ . واشتهر كثير من ابنائها في السياسة والانشاء

اما الكونت ليون تولستوي الذي احتفل بانقضاء مائة سنة على ولادته في ١٠ سبتمبر الماضي فتلقى دروسهُ الابتدائية في مدينة موسكو وفي املاك اسرته بين سنة ١٨٤٣ وسنة ١٨٤٦ ثم درس في جامعة قازان . وانتظم في سلك الجيش الروسي سنة ١٨٥١ وجعل في حاشية البرنس غورتشكوف لدى الباب العالي قبيل حرب القرم وكان في مدينة سفستاتول لما هاجمتها جنود الدول المتحاربة سنة ١٨٥٥ . وكان قد اشتهر في عالم الانشاء والشعر بمؤلفاته ومنظوماته تخرج من الجندية وانتظم في حلقة امراء الانشاء في عاصمة روسيا بطرسبرج (لننغراد)

ثم ساح في المانيا وايطاليا وتزوج سنة ١٨٦٢ ومن ثم جعل اقامتهُ في املاكهِ قرب موسكو بين الفلاحين

ومؤلفاتهُ كثيرة اقدمها كتاب الطفولة والفتوة والشباب انشأهُ وهو في القوقاس قبيل حرب القرم . ومن اشهرها الحرب والسلم . انا كارانينا . بم يعيش الناس . حيث المحبة فهناك الله . ديانة المسيح . بماذا أؤمن . الحياة . مملكة الظلام . ملكوت الله داخلكم . الانسان ورئيسهُ . حب الوطن والديانة المسيحية . ما هو الفن . البعث

وقد ضمن هذه الكتب والروايات من الآراء والافكار ما يقضي بطرح الاوهام والخرافات والصلف والكبر والاعتماد على طهارة السيرة والسريرة ومعاملة الناس بالحسنى الى حدّ انكار الذات وايثار الغير على النفس وعدم الانقياد للسلطة اذا كانت تجبر المرء على ما يخالف ضميرهُ . وقد قصد مرةً ان يوزع املاكهُ كلها على الفقراء والمحتاجين ويعيش عيشة المسكنة والفقر مثلهم لكن زوجتهُ ابت عليه ذلك حاسبة ان لاحقّ لهُ ان يحرمها واولادها مما لهم . فنقل املاكهُ اليها والى اولادهِ وكان يعيش عيشة الفلاحين

آراؤهُ وفلسفتهُ واثرهُ

اشار تولستوي الى غايتهِ العظمى من الحياة بقولهِ في احدى رواياتهِ « ان مثلي الاعلى هو الحق ». واذا نظرنا الى المكانة الرفيعة التي تبوأها في حياة اوربا الفكرية مدة ثلاثين سنة قبل وفاتهِ عرفنا ان تولستوي كان قوة فكرية عالية لانهُ كان يبحث عن الحقائق ويذيعها للناس في غير تردّد او ملابسة

فلقد كان من ابناء الاشراف محتداً ومولداً ونشأة وتهذيباً فاجتمع لهُ في نفسهِ عنصران تلازما مع تناقضهما — الاول ذلك العنصر الحيوي الذي يدفع الشاب الى غمرات الحياة بعسراتها وملاهيها . والعنصر الثاني هو ذلك التصوف الروحي الذي لا يتصف بهِ الاّ كبار المصلحين

وقد ظهر فيهِ هذا العنصر الاخير ظهوراً واضحاً لما كان لا يزال حدثاً فقد ذكر في يوميتهِ سنة ١٨٥٥ ان نوراً علويًّا اضاء عقلهُ ونفسهُ وهو السعي لتوحيد امم الارض وربطها معاً بدين المسيح بعد تنقيتهِ من آيات التحكم والخرافات. ولكن عقيدتهُ المسيحية لم تتخذ شكلاً معيناً الاّ بعد ما انقضى نحو ثلاثين سنة على ذلك

وكان غايًّا طموحاً الى المعالي فتنازعهُ عاملان — الاول ان ينزوي في أراضيهِ ويعيش عيشة الامير القروي والثاني ان ينضمّ الى حاشية القيصر ويعيش عيشة امراء البلاط واشرافهِ. وبينما هو يتردد بين العاملين انتظم في سلك الجيش وشهد معارك حرب القرم كما تقدم فوصفها في كتابهِ « سڤاستبول » فرّق بهِ انسنا الاخّاذ المسدول في عقول العامة حينئذٍ على صورة الحرب وصوّر ما في الحرب من الفظاعة ومعاني الحيوانية صوراً لم يجرؤ كاتب من قبلهِ على كتابتها ونشرها

وبعد سياحتهِ في اوربا سنة ١٨٥٧ عاد الى روسيا وهو ينتقد رجال البلدان التي زارها وعادات سكانها وهو كالعادة يتراوح بين عاملين عامل التجرد الروحي وعامل الانغماس في بحر الملاهي والشهوات . ولكنهُ انقطع اولاً الى الحياة في الريف فانشأ المدارس لابناء القرويين وانتصر للفلاحين على الاشراف اصحاب الاملاك . ولكنهُ سئم من القيام بعمل المصلح الشاق بعد انقضاء سنتين فتزوج وهو في الرابعة والثلاثين وانزوى في املاكهِ مكبًّا على تأليف روايتيهِ « الحرب والسلم » « وانا كارانينا » فصوّر في الاولى حياة الشعب الروسي في العقد الاول من القرن التاسع عشر . وفي الثانية طبقات الاشراف . وهاتان الروايتان من ابلغ الروايات التي كتبت واقربها الى

الحقيقة، حتى قال احد كبار النقاد في ثنايتها «هي الحياة على حقيقتها». وقد قرأنا في صحف اوربا ان شركة اميركية تعنى الآن باخراجها رواية سينائية تحت عنوان «الحب» لانها من ابلغ الروايات في تمثيل مواقفه المختلفة

***

ولكن تولستوي لما بلغ الخمسين من العمر تولاه كرهٌ من الحياة واحتقار لها وساوره تشاؤم اظلمت به نفسهُ رغم ما كان قد بلغهُ حينئذٍ من ذرى الشهرة والنجاح المادي، وسيطر على عقله قول الجامعة الكل باطل وقبض الريح. وقد اشار الى ذلك بقوله «جاء عليَّ حين من الزمن صمت فيه على الانتحار تخلصاً من عذابي». وجعل يبحث عن الله ومعنى الحياة فلجأ الى الكنيسة الروسية ولكنهُ لم يلبث ان خرج من حضنها لانهُ وجد رؤساءها يقيمون دون الدين والكنيسة حواجز لا يسمح لرجال المذاهب الاخرى باجتيازها ولانهم كانوا يؤيدون الحرب والاعدام فوضع حينئذٍ قواعد عقيدته الدينية الخمس في الكتاب الذي سماهُ «ديني» وهي (١) لا تغضب (٢) لا تشتهِ (٣) لا تربط نفسك بقسَم (٤) لا تقاوم الشرّ (٥) كن محباً للعادلين وللظالمين

واراد ان يطبق هذه القواعد على مشاكل المجتمع الروسي من دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية فاصطدم برجال الدولة ورجال الكنيسة ورجال الاعمال لان المفكرين رأوا بعد قليل من امعان النظر ان دين تولستوي القائم على مبدإ «لا تقاوم» و «لا تقاوم الشرّ» متعذرٌ تطبيقهُ لانهُ يجتث قواعد العمران من اصولها فيهدمهُ هدمًا. واشار كثيرون من منتقديه الى ان تولستوي نفسهُ لم يتمكن من تطبيق مبادئ عقيدته على حياته الخاصة دع عنك حياة امة كبيرة

على ان صوته الداعي الى توحيد الامم في السعي وراء ما هو حق وصلاح وفي القضاء على الشرور الاجتماعية في روسيا اولاً وسائر بلدان اوربا ثانياً اخذ يخترق الحجب التي ضربها على عقول الجماهير وضمائرهم دعاة المحافظة والتقليد في ذلك العصر. ولما نشر كتابهُ الذي عنوانهُ ملكوت الله فيكم (سنة ١٨٩٣) حمل فيه حملة شعواء على استئثار الحكومة باستعباد الفلاحين لما فيه فائدتها وحقّر تأييدها عن سبيل الكنيسة لتظلم جيوش مسيحية والسماح باستعباد المسيحيين في المناجم والمصانع. ومع ان الحكومة الروسية كانت تصادر اكثر رسائله وكتبه كانت نسخ منها تتصل بالاحرار من ابناء بلدان اوربا فتتلقفها الايدي كأنها آيات الوحي. ومع ذلك لم تجرؤ الحكومة على ان

تالهُ باذى لما كان لهُ من المكانة الرفيعة في قلوب الشعب

***

على ان لمآثم تولستوي وسيادتهُ لم تنحصر في روسيا بل شملت اثرها كل دول اوربا. ولعل زكانهُ وحكمتهُ وبعد نظرهِ لم تظهر باجلَّ مما ظهرت بهِ في كتابهِ « المسيحية والوطنية » الذي نشرهُ سنة ١٨٩٤ بعيد ما توثقت الروابط السياسية بين فرنسا وروسيا بزيارة الاسطول الروسي طرلون (ميناء فرنسا الحربي في البحر المتوسط) . فهبط الوحي على الصحب الفرنسوية فاخذت تتغنى ما شاءهُ البيان الفرنسوي « بالاتحاد الاخوي بين امتين عظيمتين ضماناً لسلم اوربا ». ولكن تولستوي ابان في بضع صفحات يندر وجود ما يضاهيها في بلاغة الاسترسال وقوة المارضة ان « الثأر » هو ما يطلبهُ رجال السياسة وان المحالفات السياسية لا بدَّ ان تتبعها محالفات اخرى ضدها لحفظ التوازن السياسي والحربي وان كلَّ ذلك لا بدَّ ان يزجَّ اوربا في حروب طاحنة . فصودرت هذه الرسالة في روسيا وكثير من بلدان اوربا ولكنهُ لم يكفَّ عن اعلان آرائهِ فاتبعها برسائل اخرى منها « رسالة الى الاحرار » (سنة ١٨٩٦) « والازمة في روسيا » و« نهاية العصر » سنة (١٩٠٥) تنبأ فيها بحدوث الثورة الروسية والقضاء على نظام الحكم الحالي (حينئذٍ) يتبعها ثورة وانقلاب في بلدان اوربا واميركا . ويقال انهُ لقي يوماً الموسيقي الروسي الشهير غولد نفيزر فقال : « الواضح ان مع هذه المشكلات الداخلية والخارجية لا بدَّ ان تصحو الامة الروسية ذات يوم فتجد نفسها ممزقة شرَّ ممزق . هي دولة عظيمة مترامية الاطراف الآن ولكنها قد تتفكك اوصالها بين ليلة وضحاها » وقد صحت نبوءتهُ بحذافيرها

ان عبقرية تولستوي قائمة في هيامهِ بالحق واندفاعهِ في نشرهِ غير خائف فيهِ لومة لائم . واثرهُ الخالد في حياة اوربا الفكرية هو اولاً ايقاظهُ لفكر الجمهور الروسي عن طريق مباشر والجمهور الاوربي عن طريق غير مباشر وتفتيح عيونهما لرؤية الشرور الاجتماعية التي تنخر في اركان العمران وثانياً نزع الستار المسدول على تلك الشرور والتشهير بها. ومكانتهُ كملم دولي اساسها هذه المقدرة الفريدة على اختراق الحجب وكشف الاكاذيب والخدع والشرور ووصفها ببلاغة تنفر القارئ منها وتثير فيهِ الرغبة في مقاومتها . فتولستوي كرجل فن اولاً وملم يدرك ادراكاً خفيًّا معاني الحياة الروحية ثانياً من اعظم الكتاب والمعلمين الذين قاموا في القرن التاسع عشر